المتكلم وأثره في بناء القاعدة النحوية في كتاب سيبويه

الدكتورة بان صالح مهدي الخفاجي
كلية التربية للبنات ـ جامعة بغداد

المُلقي والمُرسل والباث ألفاظ تنضوي تحت مفهوم المتكلم . فالكلام لابدّ له من متكلم ، والمتكلم عنصر من عناصر عملية الإرسال . فهو طرفٌ عليه تعتمد هذه العملية .

وعملية الإرسال لا بُدّ أن تتم بين قطبين : المُتكلّم ، وهو قطب إرسال إذ يؤلف رسالة ويُرسلها ، وقُطب ثانٍ وهو المُتلقي يفك شفراتها ويعيد بناءها بصورة عالم مُتخيّل مع ما يترتب على ذلك من تفعيل لدلالاتها النفسية .(١) فالسلسلة اللفظية المُشفرة التي يُرسلها المُتكلّم يحلّها المُتلقي في ضوء السياق الثقافي . إذ لا بدّ في كلّ موقف تواصلي من شخصين : أحدهما حقيقي فاعل وهو المتكلم والآخر المخاطب ، وكلاهما ينتمي في الأقل إلى جمعة لسانية أي طائفة من الأشخاص لها نفس اللغة .

ولفهم وظيفة اللغة يجب النظر إليها " في إطار عوامل رئيسة ينتظمها الموقف الكلامي ، وهو المتكلم والمستمع ، والأشياء (أي عناصر الموقف المحسّة وأوضاعها) التي هي موضوع الكلام ، ويقوم الرمز اللغوي على التوائم وهذه العوامل الثلاثة ، فهو يتواءم والمتكلم ، ويتواءم والمستمع ، ويتواءم وعناصر الموقف وأوضاع الحقيقة الخارجية . ويقصد بالتوائم هنا أنّه إذا اختلف المتكلم اختلف الرمز اللغوي على وفق ذلك " (٢)

أي هناك جملة من العناصر المكوّنة للموقف الكلامي ، وهي شخصية المتكلم والسامع ، وتكوينهما الثقافي ، وغير ذلك .

فطبقة المتكلّم من حيث ثقافتــه ، وعلمه ، وجهله ، وحالته النفسية ، ومركزه ، وطبيعة الموقف الذي يتكلم فيه . تؤثر في استعمال اللغة تأثيراً بارزاً . " وقد سعت أكثر المدارس اللغوية الحديثة إلى دراسة الحالات المختلفة لعناصر العملية اللغوية ، وأظهرت اهتماماً كبيراً بالجوانب النفسية والاجتماعية لكلّ من المتكلم والمخاطب إذ أدرك علماء المدرسة اللغوية الاجتماعية أهمية الموقف أو المناسبة أو المقام في الدرس اللغوي ، ودرسوا العناصر المؤثرة في كيفية قول الكلام وتركيبه ، وفي معانيه ، وفي الغرض من قوله " (٣)

وحين لا نستطيع أن نُنكر أنّ المحدثين من عرب وغربيين قد أجهدوا أنفسهم وحاولوا إعادة النظر في هذا الموضوع ، فكانت لديهم نظرات تُعنى بتطوير مسيرة البحث اللغوي التي لا يمكن أن تتوقف ، إلا أننا في الوقت نفسه نؤكد أنّ كلّ ما يحسب للمحدثين من إنجازات ونظريات نجد لها جذوراً عند علمائنا الأوائل، فقد كانت آراؤهم ومقولاتهم في هذا المضمار متناثرة في طيّات كتبهم. وما كُتب من نظريات حديثة ما هو إلا تطوير وتأصيل لما كتب القدماء .

والمطّلع على تراثنا اللغوي يستشف " أنّ علماء النحو أرسوا دعائم معنوية عبّرت عن مقاصد المتكلمين في الميادين المختلفة ، ومنها التي يدّعي المحدثون أنّهم قد ابتكروها ، أو خاضوا فيها لأوّل مرّة " (٤)

ومن كتاب سيبويه انقدحت الشرارات الأولى وعنه صدرت القبسات المعنوية التي تفضي إلى هذا النمط في التفكير النحوي . إذ نجده ينبه إلى اختلاف أحوال المتكلم في موقفه من عناصر التركيب اللغوي وكان " منذ ذلك العهد المبكّر يفزع إلى السياق والملابسات الخارجية، وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلباً للاطراد المحكم. وهو يوافق فيما صدر عنه في الكتاب ملاحظات كثيرة مما تتبني عليه الوظيفية ومناهج التوسيع أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير"(٥)، وواضح مما سنعرض إنّه تنبّه على أثر العناصر غير اللغوية كالمتكلم وموقفه الخاص من رسم الملامح للقاعدة النحوية فهو " يتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها ، وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب ، وحال المتكلم ، وموضوع الكلام " (٦) .

وقد رام هذا البحث تسليط الضوء على هذا الجانب ، وإبراز وجوده للكشف عن الوجه المشرق في تراثنا النحوي المتمثل في كتاب سيبويه الذي عُني

بكل تفاصيل المتكلم ، وبرز أثره الجلي في صياغة القاعدة النحوية وعلى النحو الآتي :

ملامحه النفسية

إنّ الحالة النفسية التي تعتري المتكلم تؤثر في طبيعة نسجه لألفاظه ، وصياغته لعباراته . وهذا الأمر عرض له علماء النحو قدماء ومحدثون في غير موطن من الكتب النحوية ، فما ينتاب المتكلم من دوافع نفسية تؤثر في صياغة عباراته ، وهذا مما يؤدي إلى حذف بعض الألفاظ من كلامه فذهب بعض الدارسين المحدثين إلى أنّ الجمل نوعان أحدهما منطقي ، ينطقه المتكلم بهدوء وتعقل وهو يتركب من اسمين ، أو اسم وفعل ، والآخر انفعالي ينطقه المتكلم وهو منفعل متوتر ، ... فإذا أخضعنا النصوص النحوية للمنطق فقد نقلناها من أسلوب إلى أسلوب وقطعنا الصلة بـين معناها وروحها ، أو بين منطوقها ونفسية صاحبها (٧)

وقد اهتدى سيبويه إلى ما كان يدور في نفس المتكلم ، وأولى حالاته النفسية اهتماماً ملحوظاً ، وما ينتابه من هواجس وشكوك ، أو مشاعر انسانية مختلفة من خوف وتوجس ، فنراه يصرح تارة ، ويلمح أخرى وقد رصدت أغلب النصوص التي راعى فيها حالة المتكلم النفسية ، وما تخالج مشاعره ، وما يدور في خلده من شك أو تيقن وغيرها مما يحسب على المشاعر الانسانية . فالمتكلم يترجم كلّ ما يمر به إلى ألفاظ وهذه الألفاظ بمثابة شفرات توضح ما يدور في كنهه .

١ـ الشك واليقين :

إذاً الكلام هو عملية ترجمة لمشاعر الانسان الخفية وقد بيّن سيبويه هذه الحالات فكانت حالة الشك واليقين التي تنتاب نفس المتكلم أول ما يطالعنا في حديثه عن باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعوليه ، فيقول في ، نحو : " **حسب عبد الله زيداً بكراً ، وظن عمر خالداً أباك... وإنما منَعك أن تقتصر على أحد المفعولين ههنا أنّك إنّمَا أردْتَ أن تبيّن ما استَقّر عندك من حال المفعول الأوّل يقيناً كان أو شكّا وذكرتَ الأوّلَ لتُعلِمَ الذي تُضيفُ إليه ما استَقّر له عندكَ مَن هو فإنّما ذكرتَ ظننتُ ونحوَه لتجعلَ خبر المفعول الأوّل يقينا أو شكّا ولم ترد أن تَجعل الأوّل فيه الشَّك أو تقيم عليه في اليقين** " (٨)

يتضح من هذا النص إنّ سيبويه تنبّه على طبيعة الأفكار التي في ذهن المتكلم ، وكيف أنّ هذا التركيب يوضح حالة شك المتكلم أو تيقنه التي يمر بها . بقوله (إنّما أردت أن تبيّن ما استقر عندك من حال المفعول الأول يقيناً كان أو شكّاً) . فقد أدرك سيبويه طواعية العربية ، وقدرتها على المواءمة بين أساليب التعبير وقواعد اللغة بما يناسب الوضع الذي يكون فيه المتكلم ، وتمكين اللغة من السيطرة على كلّ مدركات الحس ، والتصور التي تنتاب المتكلم . فكان يبني ملاحظاته في التحليل النحوي على ما يدور في نفس المتكلم .

ويعضد كلامه في موضع آخر قائلاً : " **وإنما كان التأخيرُ أقوى لأنه إنما يجئ بالشكّ بعدما يَمْضِى كلامُه على اليقين أو بعد ما يَبتدئُ وهو يريد اليقينَ ثم يُدْرِكُه الشكُّ كما تقول عبدُ الله صاحبُ ذاك بلغَنى وكما قال ممن يقول ذاك تَدرى فأخّرَ ما لم يَعملْ فى أوّلِ كلامه وإنَّما جَعَل ذلك فيما بلغه بعد ما مَضى كلامُه على اليقين وفيما يَدرى فإذا ابتدأ كلامَه على ما فى نيّته من الشكَ أعْمَلَ الفعلَ قدّم أوْ أخَّر .**" (٩)

فـــ" هـــذا التـــركيب يرجع إلى معنى قائم في النفس ، أو إلى طبيعة الأفكار وتـــرتيبها في ذهن المتكلم ، إنّه يبتدئ كلامه وهو يريد اليقين ، ثمّ يدركه الشك." (١٠) يقول سيبويه : (إنّما يجيء بالشك بعدما يمضي كلامه على اليقين ، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقين) . ويقول أيضاً : (بعدما مضى كلامه على اليقين وفيما يدري فإذا ابتدأ كلامه على ما في نيته من الشك أعمل الفعل قدم أو أخر) .

فسيبويه هنا يضع في حسبانه أنّ المتكلم في حال كلامه يتعرض إلى ما يجعله ينصرف عن اليقين إلى الشك بعد أن كان متيقناً مما يقول . فقد راوده شكٌّ في حيال ما يقول فأعرض عنه .

فالتفاته إلى هذا الملمح المعنوي يدل على أنّه يربط بين الظاهرة التركيبية في اللغة ، والظاهرة المعنوية المركبة في نفس المتكلم .

ويؤكد هذا في موضع آخر فيقول : " **ومن المبدلِ أيضاً قولك قد مررتُ برجلٍ أو امرأةٍ إنَّما ابتَدأ بيقينٍ ثمّ جعل مكانَه شكّا أبدلَه منه فصار الأوّلُ والآخِرُ الادّعاءُ فيهما سَواءٌ فهذا شبيهٌ بقوله ما مررتُ بزيدٍ ولكنْ عمرٍ و ابتدأ بنفىٍ ثم أبدل مكانَه يقينًا** " (١١)

فقد أحسّ سيبويه من تحليله النصوص النحوية أنّ المتكلّم ينتقي الصيغة المعيّنة الصالحة للتعبير عن المعنى الذي يدور في خلده في ترتيب يوائم ما يذهب إليه في تفكيره فوجد سيبويه أنّهم يضعون التركيب اللغوي وهم يلتمسون منه كيفية ترتيب المعاني في نفس المتكلم ، فقال: (إنّما ابتدأ بيقين، ثمّ جعل مكانه شكّاً... وابتدأ بنفي ثم أبدل مكانه يقيناً) .

وفي حديثه عن أم المنقطعة يدرك أنّ المتكلم تتنابه في أثناء كلامه أمور تجعله يضرب عن الذي قاله بدأ لأسباب تتعلق برؤيته لما حوله . فإنّ المتكلم يكون غير متيقن من رؤيته ، فيبدأ بالمشكوك فيه ، فيقول : إبل ، ثم يُدرك أنّه قد توهم في رؤيته فيضرب عمّا ذكره أولاً فيقول : أم شاء ، أي بل شاء فانصرف عن قوله الأول ؛ لأنّه غلط فيه ، وأضرب عنه إلى الثاني فصار ما بعد همزة الاستفهام مشكوكاً فيه ، وما بعد أم يقيناً لا شكّ فيه . فقال : " **ويدلك على أن هذا الآخر منقطعٌ من الأول قول الرجل إنها لإبلٌ ثم يقول : أم شاءٌ يا قوم فكما جاءت أم ههنا بعد الخبر منقطعةً كذلك تجيء بعد الاستفهام ... وكذلك إنها لإبلٌ أم شاءٌ إنما أدركه الشك حيث مضى كلامه على اليقين** " (١٢)

وهذه النصوص تؤكد عمق التحليل النحوي عند سيبويه ، وكيف أنّه أسس قاعدة نحوية مراعياً المتكلّم فيها بوصفه عنصراً مهماً من العناصر غير اللغوية التي تسهم في بناء القاعدة النحوية .

فسيبويه يبرهن على ما ذهب إليه من إنّ المتكلّم (إنّما أدركه الشك حيث مضى كلامه على اليقين) .

٢ــ الظن :

ومن الملامح النفسية التي وقف عندها سيبويه في كتابه (الظن) الذي يدخل ضمن ما يعرف اليوم باللغة الانفعالية ويقصد من وراء هذه اللفظة أنّ المتكلم يراوده الشك وهو غير متيقن يقيناً تاماً من الحكم الذي يصدره ، أي إنّ المتكلم لا يدعي لنفسه حكماً لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه وإنّما يلجأ المتكلم إلى ذلك ليسبغ على عبارته شيئاً من الإبلاغية المتمثلة في تصديرها بهذا الفعل .

" **وتقول إذا حدثت بالحديث إذن أظنّه فاعلاً وإذن إخالك كاذباً وذلك لأنك تخبر أنك تلك الساعة في حال ظن وخيلةٍ فخرجت من باب أن وكي لأن الفعل**

بعدهما غير واقع وليس في حال حديثك فعلٌ ثابتٌ ولما لم يجز ذا في أخواتها التي تشبه بها جعلت بمنزلة إنما ولو قلت إذن أظنك تريد أن تخبره أن ظنك سيقع لنصبت وكذلك إذن يضر بك إذا أخبرت أنه في حال ضربٍ لم ينقطع " (١٣)

فنرى سيبويه يشير إلى أنّ الحركة الإعرابية في الكلمة تترجم ما يدور في نفس المتكلم من ظن في تلك الساعة التي فيها الحديث ، فيقول (لأنّك تخبر أنّك تلك الساعة في حال ظن وخيلة) . أو إنّ الظنّ يخالجه بعد تلك الساعة أي في المستقبل وهذا واضح في قوله (تريد أن تخبره أنّ ظنّك سيقع) . فهو يتخيل أنّ المتكلم قد يراوده الشك في ساعة الحديث أو قد تكون مراودته لها في المستقبل القريب والفيصل في الحكم العلامة الإعرابية التي تكون عاملاً في الحكم بين زمانين .

وعلى ظنّ المتكلم اعتمد سيبويه في كثير من التحليلات التي عرضها للنصوص اللغوية التي فسرتها قواعد النحو ، ومنها قوله :

" **فأما المبني على الأسماء المبهمة فقولك هذا عبد الله منطلقا وهؤلاء قومك منطلقين ... والمعنى أنك تريد أن تنبهه له منطلقا لا تريد أن تعرفه عبد الله لأنك ظننت أنه يجهله فكأنك قلت انظر إليه منطلقا .**" (١٤)

وقوله في موضع آخر : " **وكذلك إن أخبرتَ ولم تَستفهم تقول سَيْراً سيراً عنيتَ نفسَك أو غــيرَك وذلك أنَّك رأيت رجلاً فى حال سيرٍ أو كنت فى حالِ سيرٍ أو ذُكر رجــل بسيرٍ أو ذُكرتَ أنت بِسيرٍ وجَرى كلامٌ يَحسن بناءُ هذا عليه كما حسن فى الاستفهام لأنَّك إنما تقول أطَرَبًا وأسَيْراً إذا رأيتَ ذلك من الحال أو ظننتَه فيه**" (١٥)

وأنزل سيبويه (الظن) في التركيب اللغوي منزلة اليقين . فالمتكلم يتكلم بحسب ما يرى من الحال ، أو بحسب ما يظن .

ويجعل ظن المتكلم محوره في تحليل النصوص اللغوية بقوله " **ومن ذلك أيضاً أعندك زيدٌ أم لا كأنه حيث قال أعندك زيدٌ كان يظن أنه عنده ثم أدركه مثل ذلك الظن في أنه ليس عنده فقال أم لا** " (١٦)

وقال في (باب أم منقطعةً): " **وذلك قولك أعمروٌ عندك أم عندك زيد فهذا ليس بمنزلة أيهما عندك ألا ترى أنك لو قلت أيهما عندك لم يستقم إلا على التكرير**

والتوكيد ... وذلك أنه حين قال أعمروٌ عندك فقد ظن أنه عنده ثم أدركه مثل ذلك الظن في زيد بعد أن استغنى كلامه " (١٧)

وهذا القول ينبئ إنّ المتكلم في بادئ الأمر يستفهم عن وجود عمرو ، ثم تتقدح له فكرة فيستدرك بوساطة أم أنّه تذكّر شيئاً ، أو تنبه على أمر متعلق بوجود زيد، وهذا الظن نقل بإشارة سيميائية ، وهذه الإشارة هي (أم) التي كانت بمثابة الوسيط لنقل ما طرأ على فكر المتكلم من تغيير في مسيرة كلامه ، وهذه الفكرة استقرت في ذهن سيبويه بقوله (فقد ظنّ أنه عنده ، ثمّ أدركه مثل ذلك الظن في زيد بعد أن استغنى كلامه) .

وهذه الملامح تبدي بوضوح أنّ سيبويه أيقن أنّ الفكرة في ذهن المتكلم تتطور وتختلف وتتغير ولا تكون على وتيرة واحدة وهذا التغيّر يُشار إليه بوساطة ألفاظ تُعدّ بمثابة الرموز التي تدل على ذلك الانتقال ، وفلسفة المتكلم وانتقاؤه لأدواته تكون موائمة لما يحس به ويشعر .

قصد المتكلم :

يروم المتكلم من كلامه أن يكون قاصداً لكلّ جزئية تشتمل عليها ألفاظه ولكلّ حرفٍ ينطق به مستنداً في ذلك إلى الاستعمال اللغوي وبما يوافق روح اللغة والقصد الإبلاغي الذي يقصده المتكلم من وحداته ومادام المتكلم بالخيار في أن يخبر عمّا ابتدأ به كلامه بما شاء من وحدات كلامية مدفوعاً بعوامل عدة منها انفعاليته والموقف الذي يملي عليه صيغة دون أخرى والشعور بضرورة الاختصار أو بضرورة الاسترسال وغير ذلك من العوامل . فنرى المتكلم يختار من الألفاظ ما تلائم نفسيته وحالته وما يسترسل في ذهنه من أفكار وقد تنبه سيبويه على هذا بفكره الثاقب وحسّه المرهف حين فرّق بين استعمالين لــ (ما) والاسم المعطوف على اسمها أيشرك مع اسم (ما) وينتصب بعده خبر ؟ أم يُبتدأ به ويكون ما بعده مرفوعاً . ثُم بيّن أنّ هذا التنوع في الأداء يوحي بمعنيين مختلفين فقال : " **وليس قولهم لا يكون في (ما) إلا الرفع بشيء ، لأنّهم يحتجون بأنّك لا تستطيع أن تقول ولا ليس ولا ما ، فأنت تقول ليس زيد ولا أخوه ذاهبين وما عمرو ولا خالدٌ منطلقين ، فتشركه مع الأول في ليس وفي (ما) . فــ(ما) يجوز فيها الوجهانِ كما يجوز في كان إلاّ أنّك إن حملتَه على الأوّل أو ابتدأتِ فالمعنى أنّك تَنْفِى شيئاً غيرَ كائن في حال حديثك وكانَ الابتداءُ**

في كانَ أوْضَحَ لأنّ المعنى يكونُ على ما مضى وعلى ما هو الآن وليس يمتَنِع أن يراد به الأوّل كما أردتَ في كان " [١٨] . فلم يغب عن بال سيبويه أنّ كلّ استعمال يتكلم به إنّما يُلوّح عن قصدية يرومها من ذلك الاستعمال فهذا جلي بقوله (إنّك إن حملته على الأول أو ابتدأت فالمعنى إنّك تنفي شيئاً غير كائن في حال حديثك)

وقد ربط سيبويه بين مُراد المتكلم والعلامة الإعرابية التي تُفصح عن وظيفة الكلمة . فإذا قصد المتكلم أمراً ما وفي زمن معيّن دون غيره استعان بالحركة الإعرابية لتعبّر عن هذا المُراد ، وهذا واضح جلي في معالجة سيبويه لقول العرب (ما أنت وشأنُك) وما شابهها حين يكون بالرفع ، فقال : " **وأمّا أنت وشأنُك وكلُّ امرئٍ وضيعَتُه وأنت أعلمُ وربُّك وأشباهُ ذلك فكلُّه رَفعٌ لا يكون فيه النصبُ لأنّك إنّما تريد أن تُخْبِرَ بالحال التى فيها المحدَّثُ عنه فى حال حديثك فقلتَ أنت الآنَ كذلك ولم ترد أن تَجعل ذلك فيما مضى ولا فيما يُستقبل** " [١٩]

وأشار إلى غاية أخرى يبتغيها المتكلم من كلامه هي تحقير أمر المخاطب أو تعظيمه حين يؤتي بهذا البناء بالرفع في قولهم (ما أنت وعبدُ الله) وأشباهها ، فقال : " **وكـذلك ما أنـت وعبدُ الله ، وكيف أنت وعبدُ الله كأنّك قلت : ما أنت وما عبدُ الله ، وأنت تريد أن تحقر أمره ، أو ترفع أمره** " [٢٠]

ومـن الموضوعات التي تتعلق بالفاعل تقدم المفعول به عليه وجوباً وجوازاً ، فوجوب التقديم أمر قد فرض على المتكلم من الواقع اللغوي العام ، أمّا في حالة الجواز فيكون هذا التقديم والتأخير ناتجاً عن تصرف المتكلم الذي يروم منه تحقيق ما يصبو إليه من مقاصد وأغراض . فالأصل الذي وردت عليه صور الخطاب بهذا الترتيب من فعل وفاعل ومفعول به هو الذي تعارف عليه المتكلم ولكنّه ينحو منحى يخالف فيه هذا الأصل فيقدم المفعول على فاعله إذا وجدت القرائن التي تشير إلى هذا التقديم ، وتجلى هذا واضحاً في نص سيبويه الذي بيّن فيه الغرض الذي يقصده المتكلم من هذا التقديم ، فقال : " **فإنْ قدّمت المفعول ، وأخّرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضرب زيداً عبد الله ، لأنّك إنّما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدّماً ، ولم تُرد أن تشغل الفعل بأول منه ، وإن كان مؤخراً في اللفظ . فمن ثم كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدّماً وهو عربي جيّد كثير ، كأنّهم إنّما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهـم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم** " [٢١]

فالمتكلم يلجأ إلى هذا التقديم إذا كان اهتمامه بالمفعول دون الفاعل ، فهو يبدأ بالفعل ثمّ الفاعل فالمفعول به إذا أراد مجرّد الإخبار ، أمّا إذا قدّم المفعول على الفاعل ففي ذلك إشارة إلى أنّه صبّ اهتمامه على المفعول به دون الفاعل . وبهذا صرّح سيبويه (إنّما يقدمون الذي بيانه أهم لهم ، وهم ببيانه أعنى)

وقد التفت إلى هذه النكتة المعنوية عبد القاهر الجرجاني فقال : " ويجيء لك هذا الفرق على وجه في تقديم المفعول وتأخيره فإذا قلت : ما ضربت زيداً فقدمت الفعل ، كان المعنى أنّك قد نفيت أن يكون قد وقع ضربٌ منك على زيد ، ولم تعرض في أمر غيره لنفي ولا اثبات وتركته مبهماً محتملاً . وإذا قلت ما زيداً ضربت فقدمت المفعول كان المعنى على أنّ ضرباً وقع منك على انسان ، وظنّ أنّ ذلك الانسان زيد ، فنفيت أن يكون إيّاه . " (٢٢)

وقال نهاد الموسى معلقاً على تقديم المفعول به " ونجد سيبويه ينفذ إلى إدراك العلاقة بين اختيار إحدى صور جائزة في تركيب نحوي واحد ، واختلاف أحوال المتكلم في موقفه من عناصر ذلك التركيب ... ووواضح بذلك إنّه تنبّه على أثر المتغيّرات الخارجيّة كالمـــتكلّم وموقفه الخاص من كلّ من العنصرين في اختيار أحد وجهين جائزين في مـــقياس النحو . وواضح بذلك أنّه يرسم لأبناء اللغة أن يساوقوا بين المتغيّرات الخارجيّة والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة " (٢٣)

وأحس سيبويه أنّ المتكلم يتصرف بألفاظ اللغة ، ويضعها في مواضع خالفت المعهود من استعمالها ؛ ليبين مراده ، وذلك في نحو استعماله هذا أنت الذي لم يرد بها المعهود من استعمالها وهو تعريف المشار إليه ، بل أراد بها تنبيه المشار إليه فقال : " **إن العرب تقول هذا أنت تقول كذا وكذا لم يرد بقوله هذا أنت أن يعرفه نفسه كأنه يريد أن يعلمه أنه ليس غيره هذا محال ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال الحاضر عندنا أنت والحاضر القائل كذا [وكذا] أنت**" (٢٤)

ومما يؤكد عمق التحليل النحوي عند سيبويه ، ومراعاته لكلّ عناصر قرينة المقام إنّه كان ينظر إلى المقام ككل ، فأقر ضوابط ملاحظة ومدركة ، منها احساس ابن اللغة وثقافته ، فضلاً عمّا يحكم هذه الضوابط من سياق الحال والجانب الاجتماعي (٢٥) ففسّر التراكيب اللغوية بحسب قصدية المتكلم . واختلاف تلك التراكيب بحسب غايته التي استقرت في نفسه ، ومنها قوله : " **وتقول ما علمت إلا أن تقوم وما أعلم إلا أن تأتيه إذا لم ترد أن تخبر أنك قد**

علمت شيئاً كائناً البتة ولكنك تكلمت به على وجه الإشارة كما تقول أرى من الرأي أن تقوم فأنت لا تخبر أن قياماً قد ثبت كائناً أو يكون فيما تستقبل البتة فكأنه قال لو قمتم فلو أراد غير هذا المعنى لقال ما علمت إلا أن ستقومون " (٢٦)

ويبرز بوضوح أنّ سيبويه يغوص في أعماق المتكلم ؛ ليبرهن على أنّ ما يدور في ذهنه من اختلاف المقصود ، وتنوع الغايات يترجم بلسان المفردات اللغوية التي يشير اختلاف ترتيبها إلى اختلاف مقصود منشئها ، فقد أشار إلى آلية تمثّل الصورة في ذهن المتكلم عند حديثه عن (أم) إذا كان الكلام بها بمنزلة أيهما وأيهم ، فقال : " **وذلك قولك أزيدٌ عندك أم عمروٌ وأزيداً لقيت أم بشراً فأنت الآن مدع أن عنده أحدهما لأنك إذا قلت أيهما عندك وأيهما لقيت فأنت مدع أن المسئول [كذا] قد لقي أحدهما أو أن عنده أحدهما إلا أن علمك قد استوى فيهما لا تدري أيهما هو والدليل على أن قولك أزيدٌ عندك أم عمروٌ بمنزلة قولك أيهما عندك أنك لو قلت أزيدٌ عندك أم بشرٌ فقال المسئول [كذا] لا كان محالاً كما أنه إذا قال أيهما عندك فقال لا فقد أحال** " (٢٧)

فسيبويه في هذا النص يترجم ما يفكر فيه المتكلم فيصفه وهو على حال يقين من وجود أحد الاثنين (زيد) و (عمر) ، وينتظر من المخاطب أن يصادق على وجود أحدهما بقوله (فأنت الآن مدعٍ أن عنده أحدهما) .

ثمّ يوضح بوساطة تحليله لهذا النمط التعبيري ، ويربط بين ما يجول في خلد المتكلم ، وتـــنسيق الألفاظ في التركيب اللغوي ، ويفاضل بين تقديم بعض الألفاظ ، وتأخير بعضها الآخر ، فيقول " **واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الاسم أحسن لأنك لا تسأله عن اللقى وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدري أيهما هو فبدأت بالاسم لأنك تقصد أن يبين لك أي الاسمين في هذا الحال وجعلت الاسم الآخر عديلاً للأول فصار الذي لا تسأل عنه بينهما ولو قلت ألقيت زيداً أم عمراً كان جائزاً حسناً أو قلت أعندك زيدٌ أم عمرو كان كذلك وإنما كان تقديم الاسم ههنا أحسن ولم يجز للآخر إلا أن يكون مؤخراً لأنه قصد قصد أحد الاسمين فبدأ بأحدهما لأن حاجته أحدهما فبدأ به مع القصة التي لا يسأل عنها لأنه إنما يسأل عن أحدهما من أجلها فإنما يفرغ مما يقصد قصده بقصته ثم يعدله بالثاني**" (٢٨)

وتبنى فكرة أنّ اختلاف معاني الأدوات النحوية مرتبط بقصدية يلوح عنها المتكلم وهذا ما لمسناه في حديثه عن الفارق الدلالي بين (الفاء) و (الواو) في قوله : " **ومما يدلك أيضاً على أن الفاء ليست كالواو قولك مررت بزيدٍ وعمرو ومررت بزيدٍ فعمرٍ و تريد أن تعلم بالفاء أن الآخر مر به بعد الأول** " (٢٩)

وكذلك تتضح معالم هذه الفكرة في حديثه عن الفارق بين (الهمزة) و (هل) الاستفهاميتين إذ يقول : " **ومما يدلك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة هل أنك تقــول للــرجل أطرباً وأنت تعلم أنه قد طرب لتوبخه وتقرره ولا تقول هذا بعد هل** " (٣٠)

فهمزة الاستفهام تناسب هذا الأسلوب في التعبير ، وقد لاحظ سيبويه هذا التفاوت في المقامات ، واختلافها ، وتنوع أسلوب الاستفهام بحسب هذا التفاوت إذا أراد المتكلم التقرير أو التوبيخ .

ومما تنبّه عليه سيبويه في أثناء تحليله للنصوص اللغوية ذات المفردات المتشابهة في البناء . المختلفة في العلامة الإعرابية . أنّ هذا التغاير في الحركات الإعرابية المؤدي إلى تغاير في وظــيفة تلك الألفاظ ناتج عن قصدية المتكلم وفلسفته ، وما يريد التعبير عنه ، فقوله : (من ذا خيرٌ منك) له معنى ، وقوله من ذا خيراً منك) له معنى آخر ، فيقول : " **وأما قولهم من ذا خير منك فهو على قوله من الذي هو خير منك لأنك لم ترد أن تشير أو تومئ إلى إنسان قد استبان لك فضله على المسئول [كذا] فيعلمكه ولكنك أردت من ذا الذي هو أفضل منك فإن أومأت إلى إنسان قد استبان لك فضله عليه فأردت أن يعلمكه نصبت [خير منك] كما قلت من ذا قائما كأنك قلت إنما أريد أن أسألك عن هذا الذي قد صار في حال قد فضلك بها ونصبه كنصب ما شأنك قائما** " (٣١)

فالعلامة الإعرابية بمثابة البديل المعنوي عمّا يقصده المتكلم ويرومه من حديثه. فلكلّ منهما مقصد ، ومعنى يختلف عن الآخر .

وتعرض سيبويه في موضع آخر من كتابه إلى البنى العميقة التي تكمن تحت البنى السطحية إذ بيّن أنّ المتكلّم يــبث جــملة واحدة تحتمل أكثر من معنى بحسب ما يرتئيه المتكلّم ، وما يتواءم وغايته التــي يريد الافصاح عنها ، من كلامه ، كالفخر ، والتوعد ، والتذلل ، والتصغير ، وغيرها من الدوافع ، فهو يزحزح معنى تلاصق مع بناء لغوي معين ، ليُحلّ محلّه معنى آخر لذلك البناء وهذا نجده في حديثه عن بيان معنى قول القائل هذا عبد الله فاعرفه وما شابهها

فيقول : " **وقد يكون هذا وصواحبه بمنزلة هو يعرف به تقول هذا عبد الله فاعرفه إلا أن هذا ليس علامة للمضمر ولكنك أردت أن تعرف شيئا بحضرتك وقد تقول هو عبد الله وأنا عبد الله فاخرا أو موعدا أى اعرفني بما كنت تعرف وبما كان بلغك عني ثم يفسر الحال التي كان يعلمه عليها أو تبلغه فيقول أنا عبد الله كريما جوادا وهو عبد الله شجاعا بطلا وتقول إني عبد الله مصغرا نفسه لربه ثم تفسر حال العبيد فتقول آكلا كما تأكل العبيد وإذا ذكرت شيئا من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل أو صفة غير عمل ولا تريد أن تعرفه بأنه زيد أو عمرو وكذلك إذا لم [توعد ولم] تفخر أو تصغر نفسك لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جهل او تنزل المخاطب منزلة من يـــجهل فخرا أو تهددا او وعيدا فصار هذا كتعريفك إياه باسمه** " (٣٢)

فاعتمد سيبويه هذا المنهج في التحليل ، وربط الكلام بمقامه إنّما أراد من وراء ذلك اكتناه البنية العميقة للجملة ؛ لتظهر جملة تامة ذات فائدة ، فضلاً عن إظهار محتواها الدلالي عن طريق تفسير الجملة تفسيراً دلالياً صحيحاً (٣٣) وهذا واضح من قوله (أردت أن تعرّف شيئاً بحضرتك ، وقد تقول هو عبد الله وأنا عبد الله فاخراً أو موعداً أي اعرفني بما كنت تعرف وبما كان بلغك عني) معتمدا في ذلك على كلام المتكلّم نفسه ، وما يلابس الموقف الكلامي من ملابسات وقرائن تدل على المقصود .

ومما مر يتضح أنّ اللغة قد أباحت للمتكلم أنماطاً من التعبير تختلف باختلاف دوافعه ومآربه الشخصية التي ترجمتها النصوص اللغوية . وقد كان هذا الأمر شاخصاً في تفكير سيبويه الذي لم يغب المتكلم عن ذهنه في تحليل تلك النصوص التي صدرت عنه ؛ ليكشف عن دلالتها ، وأسرار انتقاء بعض الألفاظ دون غيرها ، وبيان الفارق المعنوي بين الأدوات النحوية ، فضلاً عن الإشارة إلى الألفاظ التي تتشابه في هيأتها وتختلف في حركة إعرابها . وهذا النمط من التفكير يعد ملمحاً واضحاً لمراعاة الجانب الاجتماعي في التفكير النحوي عند سيبويه .

صفاته

ومما يدل على عمق التفكير عند سيبويه نراه يتخيل ما يتصف به المتكلم من صفات انسانية ، ويحلل النصوص الصادرة منه باحتمالات تشير إلى أنّه يتبع مراحل تفكير المتكلم وما يتصف به . وهذا ما يتضح في قوله في (**باب المُبْدَل من المُبدَل منه والمبدل يشرك المبدل منه فى الجر**) : " **وذلك قولك مررتُ برجلٍ حِمارٍ فهو على وجهٍ محال وعلى وجهٍ حَسَنٌ فأمَّا المحُالُ فأن تَعنَى أنَّ الرجلَ حِمارٌ وأما الذى يَحسُن فهو أن تقول مررتُ برجلٍ ثم تُبْدِلَ الحِمارَ مَكَانَ الرجل فتقولَ حِمارٍ إمَّا أن تكونَ غلِطتَ أو نَسِيتَ فاستَدركتَ وإمّا أن يَبْدُوَ لك أن تُضربَ عن مرورك بالرجل وتَجعلَ مكانه مرورَك بالحمار بعد ما كنتَ أردتَ غيْرَ ذلك ومثل ذلك قولك لا بَلْ حِمارٍ ومن ذلك قولك مررتُ برجلٍ بَلْ حِمارٍ وهوعلى تفسير مررتُ برجلٍ حِمارٍ** " (٣٤)

ففي جملة مررت برجل حمار يستكنه سيبويه من ورائها أنّ المتكلّم مرّ برجل حمار أي يشبّه الرجل بالحمار في البلادة والغباء ويحتمل أنّ المتكلّم قد غلط أو نسي فتدارك غلطه (إمّا أن تكون غلطت أو نسيت فاستدركت) ، أو إنّه أراد أن يضرب عن مروره بالحمار إلى الرجل فهذه الدلالات الباطنة التي تكتنف هذه الجملة تعبّر عمّا يجول في خاطر المتكلم وكيف أنّ الدلالات تتلاطم على تعبير واحد ولا يمكن الوصول إلى ما يريد المتكلم إلا بوساطة المتكلم نفسه أو السياق العام الذي يحكم النص ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدل على مدى فطنة سيبويه وتنبهه على مثل تلك الحالات .

وقال في موضع آخر من كتابه " **وسألته هل يكون إن تأتنا تسألنا نعطك فقال هذا يجوز على غير أن يكون مثل الأول لأن الأول الفعل الآخر تفسيرٌ له وهو هو والسؤال لا يكون الإتيان ولكنه يجوز على الغلط والنسيان ثم يتدارك كلامه ونظير ذلك في الأسماء مررت برجلٌ حمارٍ كأنه نسي ثم تدارك كلامه**"(٣٥)

فالغلط والنسيان من الصفات التي لا يكاد يخلو منها انسان لذلك نجد سيبويه تنبّه عليها ، وأولاها عنايته عند صياغته للقاعدة النحوية ، فقال : (ولكنّه يجوز على الغلط والنسيان ثمّ يتدارك كلامه ...كأنّه نسي ثم تدارك كلامه)

ويؤكد كلامنا نص آخر يطالعنا في كتاب سيبويه يبيّن فيه بجلاء ركونه إلى ما يتصف به المتكلم من غلط أو نسيان في أثناء بثه النصوص اللغوية ، ويستعين بتلك الصفات لتحليل تلك النصوص وبيان ما تحتملها من وجوه ،

فيقول: "**ولو قلت ما أتاني إلا زيد إلا أبو عبد الله كان جيدا إذا كان أبو عبد الله زيدا ولم يكن غيره لأن هذا يكرر توكيدا كقولك رأيت زيدا زيدا وقد يجوز أن يكون غير زيد على الغلط والنسيان كما يجوز أن تقول رأيت زيدا عمرا لأنه إنما أراد عمرا فنسي فتدارك ومثل ما أتاني إلا زيد إلا أبو عبد الله إذا أردت أن تبين وتوضح** " (٣٦)

إنّ البنية السطحية لهذه الجملة هي واحدة ولكنّ البنى التحتية التي تكمن داخلها والتي تحتملها هذه الجملة عديدة . حاول سيبويه بوساطة قرائن معينة الوصول إلى تلك الأوجه التي تحتملها هذه الجملة ، وكان المتكلم أحد هذه القرائن التي استعان بها لتوضيح المعنى .

وبعد كل هذا علينا القول إنّ كلّ ما يدور في ذهن المتكلم من أفكار يمكن أن تترجم على أرض الواقع إلى ألفاظ ، وهذه الألفاظ ممكن أن تحمل في طياتها معاني مختلفة وإن كانت هذه الألفاظ هي في الأصل واحدة إلا أنّها ذات دلالات مختلفة .

حواسه

السمع والبصر والشم والذوق واللمس كلّها حواس تشترك في العملية اللغوية ولها أثر في بناء النص اللغوي ، فهي متلاحمة مع الألفاظ تشاركها في رسم صورة الحدث المعبّر عنه .

وقد التفت سيبويه إلى أهمية هذه الحواس التي رأى أنّها أغنت المتكلم عن ذكر بعض الألفاظ التي تقوم هي مقامها ، فهي تقوم بوظيفة الإبلاغ شأنها في ذلك شأن الألفاظ المعبّرة عن تلك الحال وهذا من مبدأ الاقتصاد اللغوي الذي تحدث عنه اللغويون المعاصرون فقال " **أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت زيد وربى أو مسست جسدا أو شممت ريحا فقلت زيد أو المسك أو ذقت طعاما فقلت العسل ولو حدثت عن شمائل رجل فصار آية لك على معرفته لقلت عبد الله كأن رجلا قال مررت برجل راحم للمساكين بار بوالديه فقلت فلان والله** " (٣٧)

فحواس المتكلم هي وسيلة الإبلاغ عن المعاني المقصودة التي عبر عنها ولم تكن هناك حاجة لتقدير محذوف لأنّ المتكلم قد أحاط علماً بالمراد من خلال لمسه أو شمّه فحين يلمس جسم رجل يعرفه يقول : زيد فيستغني عن ذكر المبتدأ

، وكذلك إذا شمّ ريحاً فاح أريجها وتعرف عليها قال المسك ، فما عرفه المتكلم بحواسه وأحاط به علما استغني به عن ذكر الألفاظ . " فهذه آيات دالة على أنّ سيبويه أدرك ما يكون من اندغام اللغة في نظامها الداخلي الخاص ، بالحياة في مجالها الخارجي العام ، و أدرك أنّ بين اللغة وسياقها الاجتماعي علاقة عضوية... وقد لاحظ سيبويه أنّ الكلام يتألف من عناصر لغوية خالصة ... وعناصر أخرى من العالم الخارجي نراها أو نسمعها أو نشمها ، أو نذوقها . وتصبح هذه الأشياء الواقعة في مجال خبرة الحواس عنده كأنّها أجزاء في بناء اللغة تقوم مقام العناصر الخالصة من الألفاظ " [٣٨]

فقد بيّن سيبويه أنّ هم المتكلم أن يبلغ أكبر عدد ممكن من الفوائد بأقل عدد ممكن من الجهود .

وبيّن أيضاً أنّ المتكلم يصوغ عباراته وينسج التراكيب اللغوية بنمطية معيّنة بحسب ما يراه ويشاهده ، فالمتكلم حينما يرى حالة ما . تصدر عنه جمل وعبارات منسبكة بهيأة ناتجة عن تلك الرؤية فكلامه بحسب ما قال سيبويه ناتج عمّا رآه فقال : " **وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت عبد الله وربي كأنك قلت ذاك عبد الله أو هذا عبد الله** " [٣٩] .

وقال في (باب ما يَنتصب من الإِ سماء التى أُخذت من الأفعالِ انتصابَ الفعل استفهمتَ أو لم تَستفهم) " **وذلك قولك أقائماً وقد قعَدَ الناسُ وأقاعِداً وقد سار الرَّكْبُ وكذلك إن أردتَ هذا المعنى ولم تَستفهم تقول قاعِداً عَلِمَ اللهُ وقد سار الركبُ وقائماً قد علِمَ اللهُ وقد قعَدَ الناسُ وذلك أنّه رأى رجلاً فى حال قيامٍ أو حال قُعودٍ فأراد أن ينبّهه فكأنّه لَفَظَ بقوله أتقومُ قائما ؟ وأتَقْعد قاعدا ؟ ولكنَّه حذف استغناءً بما يرى من الحال وصار الاسمُ بدلاً من اللفظ بالفعل فجرى مجرى المصدر فى هذا الموضع** " [٤٠] .

وقال في موضع آخر : " **ومثل ذلك عائذاً بالله من شرّها كأنّه رأى شيئاً يُتَّقى فصار عند نفسه فى حال استعاذةٍ حتَّى صار بمنزلة الذى رآه فى حال قيامٍ وقُعودٍ لأنه يَرَى نفسَه فى تلك الحال فقال عائذاً بالله كأنّه قال أعوذ بالله عائذاً بالله ولكنَّه حذف الفعل لأنَّه بدلٌ من قوله أعوذُ بالله فصار هذا يَجرى ها هنا مجرى عِياذاً بالله ومنهم من يقول عائذٌ بالله من شرّ فلان** " [٤١]

فكانت رؤية المتكلم لما يتقيه من فعل ما دافعاً للنطق بالاستعاذة " فكثير من هذه الحالات التي يتم فيها انجاز الأفعال الأوليّة لموضوعات تشاهد عياناً " [٤٢] .

ومما يجعل المتكلم يستغني عن بعض عناصر الكلام رؤيته الأشياء رؤيةً بصرية ، وهذا ما طرقه سيبويه في باب ما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره " **أنّ ترى الرجل قد قدم من سفر فتقول خير مقدم ، أو يقول الرجل : رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا ، فتقول : خيراً وما سرّ ، وخيراً لنا وشرّاً لعدونا . وإن شئت قلت خيرُ مقدم ، وخيرٌ لنا وشرٌّ لعدونا . أمّا النصب فكأنّه بناه على قوله : قدمت فقال : قدمت خير مقدمٍ ، وإن لم يُسمع منه هذا اللفظ ، فإنّ قدومه ورؤيته إيّاه بمنزلة قوله قدمت . وكذلك إذا قال : رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا ، فتقول : خيراً وشراً لعدونا . فإذا نصب فعلى الفعل**" [٤٣]

فالرؤية هنا بصريّة حسيّة وحذف الفعل لاستغناء المتكلّم عنه برؤية الحال المشاهدة بالإبصار .

ولم تكن الرؤية العينية للمتكلم وحدها راسخة في فكر سيبويه ، وإنّما كانت للرؤية القلبية نصيب من تفكيره واهتمامه وقد عالجها في (باب ما جرى من الأسماء التى لم تؤخَذ من الفِعل مجرى الأِسماءِ التى أُخذت من الفعل) فقال: " **وذلك قولك أتمَيميًّا مرّة وقَيْسِيًّا أُخْرَى وإنَّما هذا أنَّك رأيتَ رجلا فى حال تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ فقلتَ أتميميّا مرّةً وقيسيًّا أُخْرَى كأنك قلت أتحول تميمياً مرة وقيسياً أخرى فأنت فى هذه الحال تَعمل فى تثبيتِ هذا له وهو عندك فى تلك الحال فى تَلَوُّنٍ وتنقُّلٍ وليس يَسأله مسترشِداً عن أمرٍ هو جاهلٌ به ليفهّمَه إيّاه ويُخبرَه عنه ولكنه وبَّخه بذلك** " [٤٤]

وسيبويه في هذا النص نقل لنا مشهداً مصوراً بكلّ ما فيه من ملابسات خارجيّة لما يحسّ به المتكلّم ، ويوظفها في توجيهه لأسلوب الاستفهام الذي وجهه بطريقة تختلف عمّا يُراد إذا كان مستفهماً .

فما وجده المتكلم من تغيّر مع مَنْ يتحدث معه ، وتلون وتنقل دفعته إلى استعمال أسلوب الاستفهام في قوله (أتميمياً مرة وقيسياً أخرى) على الرغم من كونه غير مسترشد لما يسأل عنه ، ولكن التوبيخ كان الغاية التي يبتغيها ، والمراد الذي يروم الإفصاح عنه من هذا الأسلوب .

فقد لحظ سيبويه أنّ الاستفهام ينصرف إلى التوبيخ والتقرير في ضوء معطيات الموقف الاجتماعي . ويدرك أنّ الجملة جزء من سياق كلامي موصول، ونراه يتجاوز النظرة إليها في ذاتها ويمد بصره إلى ما حولها من عناصر السياق الكلامي . [٤٥]

وقد أدرك سيبويه غايته منذ ذلك الوقت فكان بحق رائداً في فهم ظواهر اللغة ، وتفسير الكلام ، والوقوف على أنماطه ، ووظائف عناصره ، والأعراض الطارئة عليه ، وإنّ للمقام أثره في الكشف عمّا وراء اللغة من ملابسات خارجية تحكم التراكيب اللغوية ، وتحدد صورها الشكليّة ، وغاياتها الدلاليّة ، وكان ذلك من خلال اهتدائه إلى ملاحظة الحال المشاهدة ، وهي من القرائن المهمة للدلالة على مراد المتكلّم . وقديماً قالوا : فمن أهملها غلط نظره ، وغالط مناظرته (٤٦)

فمنطق اللغة يبيح للمتكلم أن يستخدم أساليب معيّنة يبتغي منها مقاصد تتجاوز حدود المعاني الحقيقية لتلك الأساليب لتعبّر عن معان مجازية ، وهذا يتوافق مع روح اللغة التي يبدو جليّا أنّها تتيح المجال رحباً أمام المتكلّم أن يختار بحسب ما يمليه عليه ذوقه واحساسه ، ويتصرف في الأساليب اللغوية التي تتنوع دلالاتها بحسب علاقة أطراف العملية اللغوية المتمثلة بالمنشئ والمتلقي والرسالة اللغوية فضلا عن عوامل أخرى .

موضعه

ومن أروع اللفتات الإبداعية في التفكير النحوي العربي نسج بعض من قواعدنا النحوية بحسب موضع المتكلم الذي استقر فيه ، وهذا نلمحه جلياً في موضوع عمل (حتى) الذي أشار إليه سيبويه في قوله : " **اعلم أن حتى تنصب على وجهين فأحدهما أن تجعل الدخول غايةً لمسيرك وذلك قولك سرت حتى أدخلها كأنك قلت سرت إلى أن أدخلها فالناصب للفعل ههنا هو الجار للاسم إذا كان غايةً فالفعل إذا كان غايةً نصبٌ والاسم إذا كان غايةً جرٌ وهذا قول الخليل** " (٤٧)

ويعطي حكماً آخر إذا كان الدخول لم يكن فيقول : " **وأما الوجه الآخر فأن يكون السير قد كان والدخول لم يكن وذلك إذا جاءت مثل كي التي فيها إضمار أن وفي معناها وذلك قولك كلمته حتى يأمر لي بشيء واعلم أن حتى يرفع الفعل بعدها على وجهين تقول سرت حتى أدخلها تعني أنه كان دخولٌ متصلٌ بالسير كاتصاله به بالفاء إذا قلت سرت فأدخلها ههنا على قولك هو يدخل وهو يضرب إذا كنت تخبر أنه في عمله وأن عمله لم ينقطع فإذا قال حتى أدخلها فكأنه يقول سرت فإذا أنا في حال دخول فالدخول متصل بالسير**

كاتصاله بالفاء فحتى صارت ههنا بمنزلة إذا وما أشبهها من حروف الابتداء"(٤٨)

فهذا النص يشير بجلاء أنّ موضع المتكلم المتمثل بدخوله المدينة التي يسير إليها أمّ لا يؤثر في سبك القاعدة النحوية المتعلقة بعمل (حتى) فيما بعدها ولا يمكن استكناه معنى النص ما لم تكن هناك قرائن تعين على معرفة المقصود ، والقرينة التي لوح إليها سيبويه هي المتكلم نفسه التي تعد قرينة حاليّة .

الخاتمة

وبعد هذا الغوص في كتاب سيبويه ، وتتبع أقواله ورؤاه التي صدرت عنه ثبتت لنا مقولة أنّ كتاب سيبويه هو قرآن النحو . فإنّ من أطلق هذه التسمية محقّ فيها . إذ نجد دراسات كثيرة تناولته، وما زال في هذا الكتاب جديدٌ لم يدرس حتّى الآن مما يدل على أنّه معينٌ لا ينضب من الأفكار ، والرؤى التي تبناها ، وقال بها إذ نجد أنّ ما بثّه من أفكار تعدّ وليدة عصره ، ولكنّها تُعدّ بمثابة الركائز التي استند إليها النحاة فيما بعد ، ولم تكن نظراته لتخلو من ملامح جدّة إذ نجد أنّ أغلب ما أسس من نظريات حديثة لها جذورٌ عميقة في كتابه . وإذا ما دققنا النظر في كتابه يتبيّن أن الملامح المعنوية تبرز فيه بشكل واضح . ونجده يراعي أطراف العملية اللغوية (العناصر اللغوية وغير اللغوية) فبحق أنّه يمثّل أصالة التفكير النحوي على مرّ العصور . وما يقوله يدل على عمق في التفكير في أثناء معالجته للقضايا النحوية ، فهو يتعامل مع الكلام على أنّه شكل من أشكال السلوك الاجتماعي ، فيربطه بالمواقف والملابسات الخارجيّة . مبيّناً أثر تلك المواقف في دلالات التراكيب النحوية . فضلاً عن أنّه تنبّه للقرينة وكان أسبق من غيره في عرضها وبيان أثرها في صياغة القاعدة النحويّة ، وكان المتكلّم واحداً من القرائن الحالية التي تبنى على أساسها القاعدة النحويّة .

المصادر

- **أصول النحو العربي** : الدكتور محمد خير الحلواني ، جامعة تشرين ، اللاذقيّة .
- **بدائع الفوائد** : ابن القيم الجوزيّة (ت ٧٥١هـ) ، المطبعة المنيرية ، مصر ، ١٩٦٦ .
- **التلقي والسياقات الثقافية بحث في تأويل الظاهرة الأدبية** : الكتور عبد الله إبراهيم ، دار الكتاب الجديد المتحدة .
- **دلائل الاعجاز** : عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ، دار المنار ، مصر ، ١٣٦٦هـ .
- **في حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث** : الدكتور نعمة رحيم العزاوي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٩٥ .
- **الكتاب** : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٠هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- **اللغة العربيّة معناها ومبناها** : الدكتور تمام حسّان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣م .
- **اللغة والمعنى والسياق** : جونز لاينز ، ترجمة الدكتور عباس صادق ، الطبعة الأولى ، سلسلة المائة كتاب ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٧ .
- **المدخل إلى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية** : عبد المجيد عابدين ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١ .
- **النص والسياق ، استقصاء البـحث في الخطاب الدلالي والتداولي** : فان دايك ، ترجمة عبد القادر قنيني ، أفريقيا الشرق ، المغرب ، ٢٠٠٠ .
- **نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث** : الدكتور نهاد الموسى ، الطبعة الأولى ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

الرسائل والأطاريح الجامعية

- **أثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه (أطروحة دكتوراه) : لطيف حاتم عبد الصاحب الزاملي ، كلية الآداب ، الجامعة المستنصريّة ، ٢٠٠٣ .**
- **الدلالة السياقيّة عند اللغويين** (رسالة ماجستير): عواطف كنوش مصطفى، كليّة الآداب، جامعة البصرة ، ١٩٩٢م .

البحوث :

- **مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه** : الدكتور كريم حسين ناصح ، مجلة المورد ، المجلد ٣٠ ، العدد الثالث ، ٢٠٠٢ .

الهوامش

(١) ينظر: التلقي والسياقات الثقافية ٩ ــ ١٠ .
(٢) نظرية النحو العربي ٨٥ (بتصرف) .
(٣) اللغة والمعنى والسياق ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .
(٤) مراعاة المخاطب في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه ١٨ .
(٥) نظرية النحو العربي ٨٨ .
(٦) نظرية النحو العربي ٨٨ .
(٧) ينظر : في حركة تجديد النحو وتيسيره في العصر الحديث ، ١٤٥ ، و المدخل إلى دراسة النحو العربي ٦١ ــ ٦٢ .
(٨) الكتاب ١ / ٤٠ .
(٩) الكتاب ١ / ١٢٠ .
(١٠) أصول النحو العربي ١٨٦ .
(١١) الكتاب ١ / ٤٤٠ ، وينظر ٢ / ٣٦٥ ــ ٣٦٦ .
(١٢) الكتاب ٣ / ١٧٢ .
(١٣) الكتاب ٣ / ١٦ .
(١٤) الكتاب ٢ / ٧٨ ــ ٧٩ .
(١٥) الكتاب ١ / ٣٤٠ ، .
(١٦) الكتاب ٣ / ١٧٤ ، وينظر ٣ / ١٧٧ .
(١٧) الكتاب ٣ / ١٧٢ .
(١٨) الكتاب ١ / ٦٠ ــ ٦١ .
(١٩) الكتاب ١ / ٣٠٥ ــ ٣٠٦ .
(٢٠) الكتاب ١ / ٣٠١ .
(٢١) الكتاب ١ / ٣٤ .
(٢٢) دلائل الاعجاز ٩٨
(٢٣) نظرية النحو ٩٣ .
(٢٤) الكتاب ٢ / ٣٥٤ ــ ٣٥٥ .
(٢٥) ينظر: الدلالة السياقية عند اللغويين ١٤٢ .
(٢٦) الكتاب ٣ / ١٦٨ .
(٢٧) الكتاب ٣ / ١٦٩ ــ ١٧٠ ، وينظر : ٣ / ١٧٩

(٢٨) الكتاب ٣ / ١٦٩ ــ ١٧٠ ، وينظر : الكتاب ٣ / ١٧٩ .
(٢٩) الكتاب ٣ / ٤٢ .
(٣٠) الكتاب ٣ / ١٧٦ .
(٣١) الكتاب ٢ / ٦١ .
(٣٢) الكتاب ٢ / ٨٠ .
(٣٣) ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها ٣٥٣ ، وأثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه ٢١٥ .
(٣٤) الكتاب ١ / ٤٣٩ .
(٣٥) الكتاب ٣ / ٨٧ .
(٣٦) الكتاب ٢ / ٣٤١ .
(٣٧) الكتاب ٢ / ١٣٠ .
(٣٨) نظرية النحو العربي ٩٠ .
(٣٩) الكتاب ٢ / ١٣٠ .
(٤٠) الكتاب ١ / ٣٤١ .
(٤١) الكتاب ١ / ٣٤١ .
(٤٢) النص والسياق ٢٤٧ .
(٤٣) الكتاب ١ / ٢٧٠ .
(٤٤) الكتاب ١ / ٣٤٣ .
(٤٥) ينظر: نظرية النحو العربي ٨٩ .
(٤٦) ينظر: بدائع الفوائد ٤ / ٩ ، وينظر : أثر القرائن في التوجيه النحوي عند سيبويه ٢٠٩ .
(٤٧) الكتاب ٣ / ١٦ ــ ١٧ .
(٤٨) الكتاب ٣ / ١٦ ــ ١٧ .